نزول المسيح إلى الجحيم بحسب إنجيل نيقوديموس المنحول

الخوري نعمة الله الخوري

فرض إنجيل نيقوديموس المنحول[١] تأثيراً ملحوظاً في تاريخ الكنيسة أثناء الفترة الممتدة بين القرنين التاسع والرابع عشر ؛ ينفرد هذا الإنجيل بعرض مفصّل لنزول المسيح الى الجحيم لتحرير الراقدين من هذا السجن وقد اهتمّ المؤمنون بالإطّلاع بشغف على هذه الأحداث المرافقة لقيامة المسيح الذي اصطحب معه الأبرار ليُدخلهم الى ملكوته. إن وجود مئات المخطوطات لهذا الإنجيل، في لغات[٢] متعدّدة، هو برهان واضح على انتشاره الواسع في الكنيسة.

طرح عصر النهضة والحركة الفلسفية النقدية التي رافقته، عدة تساؤلات حول حقيقة نزول المسيح الى الجحيم في الشكل الحسّي والمادي الذي يعرضه إنجيل نيقوديموس المنحول، لذلك خسر هذا الإنجيل موقعه المميّز نتيجة تراجع اهتمام المؤمنين بهذه الأخبار. سنعرض باختصار، في بداية دراستنا، خبر نزول المسيح الى الجحيم بحسب إنجيل نيقوديموس ثم سنعالج الإهتمامات اللاهوتية والأهداف التي يريد الكاتب الوصول اليها من خلال هذه القصة[٣].

أولاً : رواية تحرير الراقدين في الجحيم

في بداية هذا الإنجيل، يقول أحد المسيحيين، اسمه حنانياس، انه اكتشف قصة وضعها نيقوديموس بالعبرية حول محاكمة يسوع أمام بيلاطوس وموته ودفنه؛ ويجري بعد ذلك نقاش في المجلس اليهودي حول القيامة (مقاطع ١—١٦).

في القسم الثاني، وهو محور دراستنا، (مقاطع ١٧—٢٧) يعرض يوسف الرامي امام مجلس اليهود البراهين التي تُثبت نزول المسيح الى الجحيم : هناك شاهدان قاما من بين الأموات بعد نزول المسيح الى مثوى الأموات وهما كارينوس ولوسيوس، ابنا سمعان الشيخ الذي احتضن يسوع بين ذراعيه ساعة تقدمته الى الهيكل (لو ٢: ٢٥-٣٥). ذهب اعضاء المجلس ليتأكّدوا من الأمر فروى الشاهدان، كلّ على حدة، سرّ قيامتهما المذهل من الموت: كانا يقيمان في غياهب ظلمات الجحيم قرب الآباء والأنبياء فأشرق فجأة نور عظيم فتأكّد آدم واشعيا وسمعان ان ذاك النور هو الذي تنبّأوا بشأنه حين كانوا في

---

[١] ظهرت الترجمة العربية لهذا الإنجيل؛ رج اسكندر شديد (مترجم)، الأناجيل المنحولة، ١٩٩٩، ص١٣٥- ١٧٠ .

[٢] راجع ترجمة النص باللغة الفرنسية :

Charles MOPSIK, *Les Évangiles de l'ombre*, p 123 - 151 .

[٣] يُشير القسم الأول من هذا الإنجيل الى أخبار دوّنها نيقوديموس الذي يروي محاكمة يسوع على يد بيلاطوس، لذلك سُمِّي هذا الإنجيل قديماً : " أعمال بيلاطوس "؛ غير ان تسمية " إنجيل نيقوديموس " هي الشائعة في أيامنا.

عداد الأحياء. أعلن يوحنا المعمدان وصول المسيح القريب الى الجحيم وارتبك الشيطان وحارس الجحيم من هذا النور. ساعة وصوله، بارك المسيح آدم ودعا الأبرار ليأتوا اليه وصعدوا جميعاً الى الفردوس فالتقى الموكب بايليا وأخنوخ اللّذين كانا ينتظران على باب جنة عدن ثم انضمّ اليهم اللص المصلوب مع المسيح. طابق مجمع اليهود بين الشهادتين التي أدلى بهما لوقيوس وكارينوس خطياً، فلاحظوا تطابقاً تاماً بينهما فاستولى عليهم الخوف.

في القسم الثالث من إنجيل نيقوديموس (مقاطع ٢٨–٢٩) يُنهي لوقيوس وكارينوس شهادتهما فيمتنعان عن البوح بالأسرار الإلهية الأخرى لأن ميخائيل منعهما من ذلك. أخذ حنانيا وقيافا واليهود المرافقين الشهادتين وعرضاهما امام بيلاطوس واعلنوا أمامه اعترافهم بقيامة المسيح.

ثانياً: اهتمامات رواية نزول المسيح الى الجحيم اللاهوتية

يحرص كاتب هذه الرواية على عرض خبره بطريقة توحي ان التفاصيل الدقيقة الواردة في خبره ليست من نسج الخيال بل هي حقيقية؛ وبالفعل لم يأت لوقيوس ولوسيانوس من تلقاء ذاتهما للشهادة بل بالعكس قصدهما مجلس الشيوخ ليسألهما عن خبرتهما لسرّ زيارة المسيح الى مثوى الأموات؛ هذا يعني انه لو صدرت منهما المبادرة بإذاعة خبر قيامتهما من الأموات، لما صدّق اليهود شهادتهما. من ناحية أخرى، يشدّد الكاتب على تقواهما التي تجلّت بالصلاة والتأمل قبل الإدلاء بالشهادة: انهما على يقين انهما يعالجان اسراراً إلهية لأن جبرائيل، رئيس الملائكة، هو الذي ارسلهما للشهادة حول تحرير الراقدين من الجحيم.

مما لا شكّ فيه أنّ هذا العرض الحسّي والمادي لزيارة المسيح الى مثوى الأموات هو السبب الأساسي لتصنيف إنجيل نيقوديموس بين الكتب المنحولة، فالكاتب يتبّنى نظرة بدائية وقديمة حول الاسكاتولوجيا لأنه يتصوّر الجحيم وكأنه مدينة مظلمة ومحصّنة تحت الأرض؛ إذا تابعنا الرواية بدقة، نفهم ان الموتى الراقدين منذ بداية العالم ينضمّون الى يوحنا المعمدان واللص المصلوب ليستعدّوا في السير في موكب صاعد نحو جنة عدن. حين نقرأ النقاش بين الموتى حول مجيء المسيح القريب لتحريرهم، ساعة سطع عليهم النور في الجحيم، نشعر وكأننا في حلقة حوار بين يهود مقيمين في اورشليم وننسى ان المتحاورين هم من عداد الأموات.

غير ان هذا الطابع الأسطوري للرواية يخفي ضمن طياته اهتمامات لاهوتية اراد الكاتب ان يُوصلها الى قرّائه، لذلك يجب تجاوز التفاصيل الروائية التي نسجها الكاتب من خياله لنستطيع الوصول الى المعاني اللاهوتية العميقة التي أراد ان يُعلّمنا إياها[٤].

---

[٤] نستند في دراستنا الى المرجع التالي:

Rémi GOUNELLE (Collectif), *Le Mystère Apocryphe* (Essais Bibliques 26; Labor et Fides) 67- 84.

١ . خلاص الشعب اليهودي

يقول حنانياس الذي اكتشف هذا الإنجيل المنحول ان كاتبه نيقوديموس دوّنه بالعبرية وهذا يدفعنا الى الإعتقاد ان الكاتب اليهودي يهتمّ بشؤون بني قومه فقط وبخلاصهم؛ أشار هذا الكاتب أحياناً الى شعوب العالم باسره (ص ١٦٣، & ٢٣) وتؤكّد شهادة سمعان الشيخ ان جميع الشعوب سينالون الخلاص (ص ١٥٧، & ١٩)، لكنّ الكاتب لا يخفي نيته في التشديد على خلاص الأبرار والآباء الوارد ذكرهم في العهد القديم فقط؛ وبالفعل، إذا استثنينا بيلاطوس الذي يجري النقاش بين اليهود في حضرته، فإننا لا نجد اية إشارة الى اشخاص غرباء[٥] عن الشعب اليهودي، لأن كل المتحاورين في الجحيم ورد ذكرهم في الكتب المقدسة؛ حين سطع نور المسيح في الجحيم، تهلّل اشعيا وابتهج ايضاً سمعان الشيخ ويوحنا المعمدان (ص ١٥٧ & ١٩)؛ أشار آدم وابنه شيت الى شجرة الرحمة وهي الصليب (ص ١٥٨ & ٢٠) وتذكّر داود مزاميره (ص ١٦١ – ١٦٢ & ٢٢) واستشهد حبقوق بنبوءته (ص ١٦٥ & ٢٥) ودخل أخيراً ايليا واخنوخ مع المخلّصين الى الفردوس (ص ١٦٦ & ٢٦).

ما يلفت انتباهنا هو ان الكاتب يعود الى العهد القديم بطريقة خاصة به، فهو لا يستشهد بأقوال الأنبياء كما وردت في الكتب المقدسة بل يعتبر ان الأنبياء القاطنين في الجحيم تذكّروا أقوالهم التي تنبأوا بها حين كانوا أحياء فتأكّدوا من تحقيقها في شخص المسيح؛ لا نلاحظ تشديداً على النبوءات المحفوظة في الكتب، بل بالعكس نحن امام انبياء يتوجّهون شخصياً الى الشعب اليهودي المقيم معهم في الجحيم معلنين الخلاص العتيد. لقد قرأ كاتب إنجيل نيقوديموس نصوص العهد القديم المقدسة بمنظاره الخاص وفهمها على ضوء نزول المسيح الى الجحيم فأعطاها معنى جديداً لم يسبقه احد اليه من قبل. استشهد هذا الإنجيل المنحول بالنصوص القانونية فشهد على صدقها وهكذا تدعم الكتب المنحولة الكتب القانونية التي تعترف بها الكنيسة.

من الواضح ان كاتب هذا الإنجيل المنحول يعيش في أجواء الصراع بين اليهودية والمسيحية وقد شاء ان يدعو بني قومه ليتعرّفوا الى المسيح تاركين ديانتهم وعباداتهم لأن كل اقوال الأنبياء تحقّقت ساعة نزول المسيح الى الجحيم. إن القديسين الذين ذكرهم العهد القديم كانوا على صواب حين تنبّاوا بشأن المسيح وهم يستحقون الخلاص الذي منحه المسيح للمؤمنين به، غير ان المشكلة تكمن في انهم سبقوا تجسّد المسيح ولم يعرفوه إلا بشكل غامض لذلك كان من الضروري ان ينزل المسيح الى مثواهم ليتعرّفوا اليه شخصياً ويذهبوا معه الى جنة عدن. هكذا يحلّ اللقاء بين يسوع والمختارين محلّ المعرفة التي لم يحصلوا عليها حين كانوا أحياء فنالوا الخلاص. باختصار، يريد كاتب هذا الإنجيل المنحول ان يقنع بني قومه

---

[٥] يذكر الكاتب قوماً نجهلهم وهم التر Tartares وقد اعتبرت الترجمة العربية التي نستند اليها ان هؤلاء القوم هم التتر (ص ١٥٩ & ٢١).

اليهود بان يتركوا ديانتهم التي لا مبرّر لوجودها لأن المسيحية اصبحت اسرائيل الجديد وحلّت محلّ شعب العهد القديم.

٢ . نزول المسيح الى الجحيم والعهد الجديد

لم تذكر الأناجيل القانونية نزول المسيح الى الجحيم بالشكل المفصّل الذي عرضه إنجيل نيقوديموس المنحول، ولكننا نجد في العهد الجديد إشارات غامضة تجد صداها في هذا الإنجيل المنحول.

يؤكّد متى ان ابواب الجحيم لن تقوى على الكنيسة التي اسّسها المسيح على سمعان بطرس (مت ١٦: ١٨) ويعتبر لوقا الذي يستشهد باشعيا ٩: ١ ان المشرق من العلى ظهر للمقيمين في الظلمة وظلال الموت (لو ١: ٧٩) واوضح يوحنا ان المسيح الكلمة جاء الى العالم نوراً فكلّ من آمن به لا يبقى في الظلام (يو ١٢: ٤٦ ؛ رج ايضاً: يو ١: ٩؛ ٨: ١٢)، كما ان المسيح يؤكِّد، بعد شفاء المقعد في بيت ذاتا، ان الساعة اتت حين يسمع الأموات صوته ليخرجوا (يو ٥: ٢٥، ٢٨-٢٩).

يوم العنصرة، استشهد بطرس بالمزمور ١٦: ١٠ الذي يشير الى المسيح الذي لن يترك نفس صاحب المزمور في مثوى الأموات (اع ٢: ٢٧) وتذكّر بولس المزمور ٦٨ : ١٩ فاعتبر ان المسيح حرّر الموتى حين صعد الى العلى واقتاد المسبيّين، فكلمة صعد تعني انه نزل الى عمق اعماق الأرض (اف ٤: ٨ - ١٠)؛ وأعلن رسول الأمم ايضاً ان كل ركبة تنحني باسم يسوع في السماء وعلى الأرض وفي الجحيم (فل ٢: ١٠) وتبعه كاتب الرؤيا الذي يعتبر ان كل خليقة في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض تهتف للحمل الذي يحمل بيده مفاتيح الموت والجحيم (رؤ ١: ١٨).

غير اننا نجد الإشارة الواضحة الى نزول المسيح الى الجحيم في رسالة بطرس الأولى حيث يقول الرسول: "فالمسيح نفسه مات مرة من اجل الخطايا. مات، وهو بار، من أجل فجّار ليُقرّبكم الى الله. أُميت في جسده ولكنه أُحيي بالروح فذهب بهذا الروح يبشّر الأرواح التي في السجن ايضاً وكانت بالأمس قد عصت..." (١ بط ٣: ١٨ – ٢٠).

هذه الشهادات المتنوعة الواردة في عدة كتب من العهد الجديد هي برهان اكيد على ايمان الكنيسة الأولى بحقيقة نزول المسيح الى الجحيم لتحرير الراقدين الذين تاقوا منذ القدم لرؤية وجهه ساعة مجيئه. لم تتوسع كتب العهد الجديد في عرض كيفية زيارة المسيح الى الجحيم لذلك أخذ كاتب إنجيل نيقوديموس على عاتقه هذه المهمة فعرض تلك الزيارة الى مثوى الأموات باسلوبه الخاص المليء بالحيوية والصور المنسوجة من الخيال ليُظهر قدرة المسيح على إنقاذ البشرية المعذّبة في أعماق الأرض.

٣ . الكريستولوجيا في إنجيل نيقوديموس المنحول

عبّر الكاتب في هذه المقطوعة الأدبية عن ايمانه بيسوع المسيح ملك المجد الذي دخل منتصراً الى الجحيم واهمل الفكرة القائلة ان المسيح نزل الى الجحيم لأنه مات كسائر الناس فنال المصير المحتوم على كل البشر؛ يعرض الكاتب ايمانه بقدرة المسيح من خلال حوار بين امير الجحيم والشيطان حين سمع هذا الأخير بمجيء المسيح الى ذاك الحبس المظلم إثر إشراق النور العظيم.

رفض الشيطان ان يعترف بقدرة المسيح على مثوى الأموات، وذكّر الشيطان امير الجحيم بالكلمات التي تلفّظ بها المسيح قبل آلامه والتي تشير الى ضعفه: " نفسي حزينة حتى الموت" (مت ٢٦ : ٣٨) ؛ يعتبر الشيطان ان المسيح انسان عادي يخاف الموت لذلك طلب من امير الجحيم لكي يستعد للإنقضاض عليه لأنه من السهل التغلّب عليه(ص ١٥٩ & ٢١).

اعترض امير الجحيم على موقف الشيطان، وتلى داود مزاميره التي ستتحقّق الآن عند دخول المسيح الى الجحيم وطلب القديسون من امير الجحيم ليفتح الأبواب امام ملك المجد، فدخل رب الجلال بغتة في هيئة رجل وأضاء الظلمات الأبدية وكسر الأغلال التي لم تكن محطّمة(ص ١٦٢ & ٢٢). نفهم هنا بوضوح ان المسيح دخل الى عالم الجحيم كالنور الذي يخترق الظلام وهو يشبه ملكاً يحكم على اراضيه الخاصة. ان المسيح هو انسان ميت ولكنه يختلف عن الآخرين لأن الموت لا يطاله بل هو سيد الأحياء والموتى.

حين رأى امير الجحيم والموت وخدّامهم القساة مجد المسيح استولى عليهم الخوف فصاحوا قائلين: "من انت ، انت، الذي من دون إصابة فساد، وبتأثير جلالك الذي لا يُقاوَم، استطعت هدم قدرتنا؟ من انت، انت، البالغ الكِبَر والبالغ الصِّغر، البالغ الاتضاع والبالغ السمو، الجندي والقائد، المحارب الرائع في هيئة عبد؟ ملك المجد الميت والحي الذي حمله الصليب معدماً. انت الذي لبثت ميتاً ممدّداً في القبر والذي نزل حياً الينا؟ وكل مخلوق ارتجف في موتك، وكل الكواكب تزعزعت، والآن اصبحت حراً بين الموتى، وتُبلبِلُ جوقاتنا.من انت، انت، الذي يفكّ الأسرى ويغمر بنور ساطع مَن اعمتهم ظلمات الخطايا؟ (ص ١٦٢ & ٢٣).

تعترف القوى المسيطرة على الجحيم من خلال هذه التساؤلات بانتصار المسيح على الموت؛ أُصيب عالم الجحيم بهزيمة نكراء لأن جميع الموتى نالوا الخلاص بعد اندحار القوى الشيطانية. ان انتصار المسيح له بعد ازلي، فالجحيم لم يعد المكان الذي يسجن الأموات، فكما خلّص المسيح الموتى المسجونين قبل نزوله الى الجحيم كذلك سيصل الخلاص الى الموتى الذين سيموتون فيما بعد. داس المسيح برجليه الجحيم فاضحى منتصراً وملكاً مجيداً.

لن تتألم النفوس بعد نزول المسيح الى الجحيم لأنه اضحى مكاناً خاضعاً لسلطة المسيح، فالملك المنتصر ترك هناك علامة الصليب للدلالة على تغلّبه على الموت بصليبه (ص ١٦٥ & ٢٥).

خاتمة

تضمّن انجيل نيقوديموس المنحول أخباراً طريفة واسطورية دفعت المؤمنين الى الحذر من أخباره الغريبة، غير ان هذا الفن الأدبي يحمل ضمن طياته ايماناً لاهوتياً عميقاً بشخص المسيح القائم من الموت الذي امتدت سلطته على عالم الأحياء والأموات. عبّر الكاتب عن ايمانه باسلوب مصوَّر رائع لذلك يجب ان ننزع السُطُر عن هذا الخبر لنستطيع الولوج الى تعليمه الذي يكشف عن ايمان كاتبه بالمسيح المنتصر. ان مدوِّن هذا الإنجيل المنحول هو مؤمن يريد ان يعبّر عن ايمانه باسلوب يتناسب مع عقلية معاصريه لذلك اتسم كتابه بالغرابة؛ ولكن يجب ان نعترف ان هذا الكاتب يجعلنا نلتقط انفاسنا أثناء قراءة كتابه ويُرغمنا على متابعة الخبر الى النهاية لنعرف خاتمة الأحداث. آمن حنانيا وقيافا بحقيقة قيامة المسيح وستتّسع دائرة المؤمنين لتشمل عدداً كبيراً من اليهود الذين سيتخلّوا عن ديانتهم كما فعل نيقوديموس وحنانيا وقيافا وهكذا توّفق الكاتب بعرض وجهة نظره وتمكّن من ايصال خبرته للمسيح القائم الى معاصريه فترك أثراً كبيراً في تاريخ الكنيسة يمكن ملاحظته في الصور البيزنطية التي تُصوِّر نزول المسيح الى الجحيم، وفي الأخبار الملحمية كملحمة دانتي.